بطرس الاكبر واصلاح روسيا

لم يذكر في تواريخ البشر ان ملكاً عانى في اصلاح بلادهِ وتمدينها ما عاناهُ بطرس الاكبر . فقد شرحنا في الجزء الماضي كيف انهُ طاف في مدن اوربا ودخل مصانعها وعمل فيها كاحد العمّال واختار الصنّاع منها وعاد بهم لكي يعلّموا شعبهُ الصنائع المختلفة . لكن الشعب تمّ عليهِ نعمت الجنود وقال الكهنة انهُ هو الدجّال الذي يظهر في آخر الزمن وزعموا ان امهُ لم تكن زوجة شرعية لابيهِ فصدق عليهِ ما قيل عن الدجّال واستدلوا على شرهِ بحلقهِ اللحى ولبسهِ لباس الالمان . وقالوا مَن رأى قيصر موسكو يغادر روسيا المقدّسة ويتبهّ في بلدان الاجانب ويتعرّض للخاطر في بلدان الترك والالمان في اطراف المسكونة . وزعموا انهُ تزيّا بزي تاجر وذهب الى بلاد الدنمارك فدرت بهِ الملكة وقبضت عليهِ وطرحتهُ في السجن ثم سلمتهُ الى اعدائهِ فارادوا ان يضعوهُ في برميل مبطن بالمسامير الحادة ويطرحوهُ في البحر لكن واحداً من الجند الروسي وضع نفسهُ بدلاً منهُ فانقذهُ . وبقوا الى سنة ١٧٠٥ يعتقدون انهُ لا يزال محبوساً في بلاد الدنمارك وان الذي يحكم البلاد باسمهِ رجل آخر

وعصت الجنود القديمة مراراً وشاركهم بعض وجوه المملكة حتى اضطر ان يقبض عليهم ويعذبهم ويقتلهم وذبح مرةً بيدهِ اربعة وثمانين منهم . ولكن كل الثورات الداخلية لم تكن شيئاً مذكوراً في جنب ما فعلهُ ملك اسوج كارلس الثاني عشر فانهُ كاد يفعل برومية ما فعلهُ الاسكندر المكدوني ببلاد الفرس . وكان كارلس هذا بطلاً مغواراً لا يصطلي لهُ بنار خلف اباهُ كارلس الحادي عشر وعمرهُ ١٥ سنة لا غير والحال اتفق عليهِ ملك الدنمارك وملك بولندا مع بطرس الاكبر لكي يسلبوهُ بعض بلادهِ فحارب الدنمارك واضطرها الى طلب الصلح على ما اراد وعاد الى الروس وكانوا تحت اسوار نارفا بخمسين الف محارب فهاجمهم بثلاثة آلاف من رجالهِ وقهرهم واضطرهم الى الهزيمة بعد ان اثخن فيهم . ثم خلع ملك بولندا ونصب عليها غيرهُ . فهابتهُ اوربا كلها وارتجفت منهُ فرائص ملوكها . ولم يكتفِ بما نالهُ من النصر المبين بل جمع ٤٣٠٠٠ من الجنود وزحف بهم على روسيا فهرب القيصر من وجههِ بعد ان كاد يقع اسيراً في يدهِ والجأ الى تخريب البلاد لكي لا يجد فيها طعاماً ولا اواه كما فعل القيصر اسكندر الاول لما غزاها نابوليون . واما هو فلم يعبأ بذلك بل واصل السير الى ان التقى بالجنود الروسية في سمولنسك وشتت شملهم ومن ثم انفتحت لهُ الطريق الى موسكو ولكنهُ دار جنوباً منتظراً ان يقابلهُ رئيس القزاق بثلاثين الفاً من رجالهِ كما وعدهُ .

كارلس الثاني عشر محمولاً في معركة بلتاوى

أكادمية العلوم في بطرس برج

ملتقطف اغسطس سنة ١٩١٣ صفحة ١٧١

واتفق ان الشتاء تلك السنة كان شديد الزمهرير جداً ورجالهُ غير مستعدين لهُ فهرأم البرد واعوزهم الطعام وماتت دوابهم فاضطروا ان يتركوا مدافعهم في الطريق . وحال بطرس الاكبر بينهم وبين بلادهم فلم تأتهم النجدات منها ولا انجدهم الفراق . ووصل كارلس الى مدينة بلتاوى بثلاثة وعشرين الفاً من رجالهِ لا غير فوقف هناك لانهُ كان ينتظر نجدة من الاتراك والبولنديين وخطر لهُ ان يشاغل المدينة ويهاجمها بدلاً من الانتظار وحاول قواده ان يصرفوهُ عن ذلك لقلة ما لديهم من الميرة فلم ينصرف بل قال اني لا ادع ما انا فيهِ ما لم يأتني ملاك من السماء باوامر من الله . وكان القيصر يخشى صولتهُ لاسيما وان روسيا كانت مضطربة في داخلها وقد طلب منهُ ان يعود الى بلادهِ وانهُ هو (اي القيصر) يكتفي بمرفإ واحد على البطليك فقال لهُ كارلس انني لا اتفق معك الاَّ في موسكو نفسها . وكان جواب القيصر لهُ حينئذٍ « ان كان اخي كارلس يحسب نفسهُ الاسكندر فليعلم اني لست داريوس »

ووصل القيصر الى بلتاوى في الخامس عشر من شهر يونيو سنة ١٧٠٩ بستين الف مقاتل فنزل بهم امام جيش كارلس وحفر خندقاً حولهم في ليلة واحدة وكان معهُ ٧٢ مدفعاً ولم يكن مع كارلس سوى ٢٣ الفاً من الجنود واربعة مدافع وكان جنودهُ خائري القوى من الجوع والعري ومشقة السفر . واتفق انهُ كان خارجاً ذات ليلة بنفر من رجالهِ ليغلق الروس فاصيب بجرح في عقب رجلهِ اضطرهُ الى عملية جراحية وتعذر عليهِ ركوب جوادهِ حتى اذا حدثت المعركة الفاصلة في الثامن من يوليو حملهُ رجالهُ حملاً

وكان القيصر يخشى ان تدور الدائرة عليهِ فيقضي على روسيا فخاطب رجالهُ قبل المعركة قائلاً « جاءت الساعة ومستقبل روسيا في يدكم لا تقولوا اننا نحارب لاجل بطرس كلاَّ بل انكم تحاربون لاجل بلادكم نعم اننا نحارب لاجل بلادنا ومذهبنا الارثوذكسي ولاجل كنيسة الله اما انا فاني مستعد ان اضحي حياتي لاجل خير روسيا ومستقبلها المجيد »

واتخذ الاسوجيون خطة الهجوم لانهم اذا هجموا لم يكن احد يقف في وجههم فهزموا فرسان الروس . وحاول القيصر ان يجمع شملهم فلم يفلح واصابتهُ رصاصة في قبعتهِ . لكن الكثرة تغلب الشجاعة فان القائد منشيكوف الروسي دار برجالهِ من وراء الاسوجيين وكانت المدافع الروسية لا تنفك عن اطلاق قنابلها فتقتل الجمول التي كانت تجر مركبة كارلس حتى اضطرَّ رجالهُ ان يحملوهُ بين ايديهم وكانوا اربعة وعشرين فقتل منهم واحد وعشرون . وتراجعت فرسان الروس وتبعهم المشاة وهجموا على الاسوجيين فحرقوا صفوفهم واوقعوهم بين نارين حاميتين القيصر برجالهِ من امامهم والجنرال منشيكوف برجالهِ من ورائهم فاختلَّ نظامهم

واركنوا الى الفرار واركبوا كارلس على جواد رغماً عنهُ واخذوهُ معهم . وقتل من الاسوجيين في هذه المعركة عشرة آلاف وأُخذ منهم ثلاثة آلاف اسير والباقون واصلوا السير وراء ملكهم لكن منشيكوف ادركهم واضطرهم الى التسليم . وفي المساء استقبل القيصر قواد الاسوجيين الذين اسرهم وكانوا اشهر القواد الاوربيين في ذلك العصر فاكرمهم ودعاهم الى العشاء معهُ هم والوزير غراف بيير وردَّ للقائد رنسكولد سيفهُ وشرب نخب الملك كارلس قائلاً اني اشرب نخب استاذي في صناعة الحرب

اما كارلس فسار بشرذمة من رجاله الى ان وصل الى مدينة بندر وكانت في املاك الدولة العلية . وحمل الدولة على محاربة روسيا كما سيجيء . ثم تمكَّن من العودة الى بلادهِ ومواصلة الحروب الى ان قُتل سنة ١٧١٨ وعمرهُ ٣٦ سنة فقط

وكان لفوز بطرس الاكبر على كارلس الثاني عشر اكبر شأن في مستقبل روسيا وبهِ صارت من الدول الاوربية العظمى كما ان اسوج انحطت من الدرجة الاولى الى الدرجة الثالثة

هذا ولنعد الى الاصلاح الذي ادخلهُ بطرس الاكبر في روسيا فقد حاول ان يجعل الروس يقتدون بالالمان والانكليز والفرنسويين في كل شيء في المأكل والمشرب والملبس والعادات وكانوا الى ذلك الحين مثل سائر الامم الشرقية في كل ذلك فالزمهم ان يحلقوا لحاهم ويخلعوا الجبة والقفطان ويلبسوا السترة والبنطلون حاسباً ان ما يمكن ان يتم في مئة سنة يجب ان يتم في بضع سنوات وانهُ ما من معرَّة عليهِ ولا على رجالهِ اذا تشبهوا بالامم التي سبقتهم في ميدان الحضارة بل العار كل العار اذا تشبثوا بعاداتهم ولم يغيروها الاَّ رويداً رويداً بحكم الزمن

واتى بالرجال من ممالك اوربا ليستعين بهم في ما هم منفوقون بهِ ونشش عن النوابغ في بلادهِ وعلَّمهم ورقاهم سواء كان اصلهم وضيعاً او رفيعاً فاسكندر منشيكوف كان خادماً عند حلواني فاكتشفهُ وعلَّمهُ وصيَّرهُ اميراً ومشيراً واميرالاً ومخائيل غالتسوين الذي صار مرشالاً كان من نسل الامراء وقس عليهما كثيرين من الرجال الذين اشتهروا في عصرهِ وحازوا الشهرة الواسعة عن استحقاق

واقتدى بالانكليز في حصر ميراث الكبراء بالبكر من اولادهم او بالوارث الاكبر لكي لا تتوزع ثروة الاغنياء ولا يعيش اولادهم بالاسراف والتبذير بل يضطرون الى السعي والكدح . ومنع اولاد الاشراف من التزوج والانتظام في خدمة الحكومة ما لم يتعلموا وينالوا درجة عالية من العلم

وكان نساء الروس يتحجبن مثل سائر النساء الشرقيات فابطل الحجاب والزم الوالدين ان يعدوا بناتهم للتعلم وان لا يزوجوا بناتهم على غير ارادتهن . والزم الخطيبة ان تجالس خطيبها وتعاشره قبل الزواج فاذا توافقت طباعهما تزوجا والاَّ بطلت الخطبة . واقام الاحتفالات العمومية ودعا اليها الرجال والنساء فاتوها بثيابهم الاوربية واختلطوا بعضهم ببعض ورقصوا معاً كما يفعل الالمان والفرنسويون والاسوجيون . ومنع رجاله من السجود لهُ كما كانوا يسجدون لاسلافهِ

وانشأ مجلساً للحكومة من كبراء رجاله واعطاهُ سلطة قائل سلطتهُ وانشأ نظارات تتولى شؤون البلاد كالخارجية والحربية والبحرية والمالية والعدلية والمعامل والمعادن والتجارة . ولما اتبع في ذلك مشورة الفيلسوف ليبنتز . ووضع في كل نظارة رجلاً اجنبياً ليديرها ويعلم الروس كيفية ادارتها . واستخدم الاسرى الاسوجيين في ادارة بلادهِ واستدعى السلاف من بوهميا وسايسيا وموراڤيا لانهم اقدر من غيرهم على تعلم اللسان الروسي وارسل اربعين شاباً الى كونسبرج لكي يتعلموا الادارة المالية واباح للنظارات المختلفة ان تنتخب رؤساءها

وقسم البلاد الى ولايات ومراكز ووضع لادارتها نظاماً محكماً وعاقب العمال المرتشين عقاباً صارماً لكنهُ عاقب ايضاً المتهمين بالسحر والتجديف فكان يحرق من يتهم بالسحر ويسلت لسان من يتهم بالتجديف ويعذبهُ الى ان يموت . ولكثرة ما ارهق الناس بالضرائب زاد دخل الحكومة من ثلاثة ملايين روبل سنة ١٧١٠ الى عشرة ملايين روبل سنة ١٧٢٥ لكن الجنود الذين صرفهم والرجال الذين ضاقت في وجوههم ابواب المعيشة اعتمدوا على الغزو والنهب والفوا عصابات تسطو بالبنادق والمدافع وجعلت تغزو البلاد وتنهب كل ما تجدهُ واستمرت هذه العيش لانها لم تجد من يقاومها كما فاضطر ان يحاربها حتى تمكن من كف شرها عن البلاد

واهتم اهتماماً شديداً بامر التعليم لانهُ قال ان الامة لا تقدر الاصلاح قدرهُ ولا تحتفظ به ما لم تتعلم فاذا تعلمت رضيت عنهُ وعما ابتدعهُ . واوجب تعليم اولاد الاعيان وخدمة الدين وامر ان كل من لا يحسن القراءة والكتابة ولغة اجنبية من اولاد الاعيان يحرم من ميراث والديهِ . وانشأ مدارس عمومية في كل الولايات واوجب على اولاد الموظفين ان يدخلوها كلهم بين السنة العاشرة والخامسة عشرة وجعل التعليم في هذه المدارس محصوراً في ما تدعو الحاجة اليهِ . وانشأ مدرسة للملاحة ومدرسة للهندسة ومدرسة لسلك الدفاتر وامر بترجمة الكتب من اللغات الاوربية عامة كانت او ادبية لكي تذيع الافكار الاوربية

والمعارف الادبية بين شعبه فترجمت كتب التاريخ والجغرافيا والحقوق والاقتصاد السياسي وسلك البحر والعلوم الحربية والزراعية وعلم اللغات . وكان هو يقابل المترجمين ويوصيهم كيف يترجمون قال لزوتوف ذات يوم « لا تترجم حرفياً من غير ان تفهم معنى المؤلف بل تصفح ما تريد ترجمتهُ وانعم نظرك فيهِ حتى تدرك معناهُ جيداً ومتى رأيت انك صرت قادراً ان تعبر عنهُ باللسان الروسي فترجمهُ » . وامر المترجمين ان يتركوا الشروح المطولة والتدقيقات التي لا طائل تحتها مما يملأ الالمان كتبهم بهِ ويقتصروا على ايراد الجوهر لكي لا يملَّ القارىء . واراد احد المترجمين ان يحذف كلاماً يوصف بهِ الروس كبرايرة فمنعهُ من ذلك قائلاً يجب ان نعرف حقيقة انفسنا وما يقولهُ الناس فينا لان من لا يعرف داءهُ لا يعرف دواءهُ . واستنبط حروفاً جديدة للسان الروسي من الابجدية اليونانية واصلح آلات الطباعة التي جلبها من هولندا ووضع مطبعتين في موسكو واربعاً في بطرسبرج ومطابع اخرى غيرهما وانشأ جريدة في بطرس برج وهي اول جريدة باللسان الروسي

وانشأ المستشفيات والمتاحف وبعث رسالة علمية الى كمتشكا اجابةً لطلب الفيلسوف ليبنتز لترى هل اسيا متصلة باميركا . وانشأ مدرسة لعمل الخرائط واصلاحها . وامر بجمع السجلات القديمة وحفظها لكي يحفظ تاريخ روسيا . والف واحد تاريخاً لروسيا في القرن السادس عشر فاعطاهُ مئتي روبل . وكان عضواً مراسلاً لاكادمية باريس فانشأ اكادمية بطرس برج سنة ١٧٢٤ على مثالها ووعبها مئتي الف روبل ودخلاً سنوياً قدرهُ ٢٤٩٠٢ روبلاً تأخذهُ من جمارك نارفا ودربات وبرنقا وجعل غرضها الاول ترجمة الكتب الى اللسان الروسي وتعليم اللغات والعلوم العملية . ولم يكن من الروسيين حينئذٍ من يؤهلهُ علمهُ لينتظم عضواً في تلك الاكادمية فكان كل اعضائها من الاجانب مثل ولف وهرمن الالمانيين ودانيال برنوبلي وجوزف دليل الفرنسويين . وقد خدم اعضاء هذه الاكادمية العلوم اجل الخدم بما اكتشفوهُ وحققوهُ كما لا يخفى

ومن اعظم اعمالهِ بناء مدينة بطرس برج عاصمة روسيا الجديدة بناها عند مصب نهر نافا ولهذا النهر هناك فروع كثيرة تقسم بها الارض الى تسع عشرة جزيرة وكلها مواطئ تغمرها المياه في بعض الاحيان ولا مزية لها الاَّ انها واقعة على رأس خليج كبير يصلح ان يكون مرفأً امينًا ولكنهُ لم يحفر حتى يصل اليها الاَّ منذ خمس وعشرين سنة فصارت بهِ مرفأً بحريًّا كبيراً . وقد نمت هذه المدينة بسرعة فائقة حتى صارت من اعظم العواصم الاوربية وزاد عدد سكانها سنة بعد سنة ولاسيما في السنين الاخيرة كما ترى في هذا الجدول

السنة	عدد السكان
١٨٥٢	٥٣٢٢٠٠
١٨٦٩	٦٦٧٢٠٠
١٨٨٠	٨٦١٣٠٠
١٨٩٠	٩٥٤٤٠٠
١٨٩٧	١١٣٢٦٧٧
١٩٠٥	١٤٢٩٠٠٠
١٩١١	١٩٦٢٤٠٠

وهي من اشهر العواصم في كثرة قصورها جمال مبانيها وفخامتها وكثرة اهل الجاه والثروة المقيمين فيها فانها مدينة اغنياء الروس

اما حربهُ مع الدولة العثمانية المشار اليها آنفاً فكان المحرك لها كارلس ملك اسوج ووكلاؤهُ وسفير فرنسا وخان التتار وغيرهم فانهم كلهم رغّبوا الباب العالي في محاربة الروس وكان السلطان احمد الثالث راغباً في هذه الحرب ليسترد ازوف فاستردها وسيجيء تفصيل ذلك في الجزء التالي

باب المراسلة والمناظرة

ذهولي

الى المقتطف الاغر

لفتة الهيئة الاجتماعية اقدم من ان تختص بالمقتطف خلافاً لما ذكرت بدليل ورودها في مقدمتي الاولى لبحر المطبوعة سنة ١٨٨٤ صحيفة ٥٨ من فاتحة الشوء ولا بدَّ اني اخذتها عن سواي ممَّن لا اذكر دلالةً على انها كانت مستفيضة في الشيوع . والذي اوقعني في هذا الخطإ انصراف فكري من الجزء الى الكل . فقد اعجبني من المقتطف يوم صدرت مقدمتهُ استعمالهُ الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة . فبقي اثر الاستحسان في نفسي وذهب عنها الشيء المستحسن . فلما جالت بي الذاكرة تولاني شيء من الذهول . فذهب عني المعيَّن الاخص